اللينيينة وشباب الأربعينيات

د. أنور مغيث (*)

ارتبط اسم محمود أمين العالم بمجموعة من المفكرين والمناضلين الذين ارتبطوا فى شبابهم فى الأربعينيات بالفكر الاشتراكى. وقد لعب هذا التيار دوراً مهماً فى الحركة الفكرية فى مصر المعاصرة. وتمثل مسيرة العالم الفكرية صورة بالغة الدلالة للمسار الفكرى لذلك الجيل.

وصحيح أن مسيرة محمود أمين العالم تتميز بالخصوصية والثراء والتفرد بشكل لايجعل منه مجرد نموذج أو عينة لرفاقه، ولكننا لانستطيع أن نلتقط أبرز سمات هذا الجيل إلا من خلال التجارب التى تتميز بالأصالة والتفرد فيه.

ويتلخص ذلك بوضوح فى عرض محمود أمين العالم لظروف لقائه بالفكر الاشتراكى من خلال وصفه لأزمته الفكرية، كما جاءت فى مقدمة كتابه فلسفة المصادفه، حيث كان طالباً يدرس الفلسفة: «كنت أنتمى كلية الى تيارات أيديولوجية غير علمية.. كانت إرادة نيتشه هى محركى، ووسيلتى فى المعرفة كان حدس برجسون وطاقته الحيوية ولا أرى فى الواقع إلا عبث مايرسون وكان شعر إليوت هو أنشودتى المفضلة. كنت أتصرف بوعى بائس يختلط فيه الإشكال العلمى بالاكتئاب النفسى». (١)

(*) مدرس الفلسفة السياسية كلية الآداب جامعة حلوان.

(١) محمود أمين العالم، فلسفة المصادفة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠، ص ١٠.

ولو تأملنا هذا النص لوجدناه يحفل بأسماء من كبار الفلاسفة والأدباء ولكنهم جميعاً من الغربيين.. ولم نجد العالم يضيف إلى ملامح أزمته الفكرية فيض الفارابى أو إشراقية ابن سينا أو عقلانية ابن رشد. ولم يكن محمود العالم مقطوع الصلة بالتراث الفلسفى والأدبى الإسلامى فقد نشأ فى عائلة تشتغل بالتراث وعاش صباه وشبابه فى رحاب هذا الفكر. ولكن هنا يعبر عن تطلع الشباب أو الانتليجنسيا الجديدة إلى فكر معبر عن روح العصر، وثيق الصلة بهموم الإنسان المعاصر. ويسترعى الانتباه إلحاح محمود أمين العالم على وصف حاله وهو بين هذه الكوكبة من أعلام الفكر بالوعى البائس والاكتئاب النفسى. فلا يمكن الزعم بأن التحمس لأفكار نيتشه أو اعتناق آراء برجسون يدفع بالإنسان إلى أزمة فكرية، ولكن موقف العالم الشاب من واقعه المصرى هو الذى يفسر أزمته الفكرية فكيف يستريح لأفكار نيتشه التى تحتقر الضعفاء فى واقع تعانى فيه الأغلبية من الانسحاق والحرمان، وكيف يتعايش مع آراء برجسون وما تتسم به من تصوف وروحانية فى مجتمع يحتاج إلى العقلانية والفكر العلمى.

ولقد كان المخرج من هذه الأزمة بالنسبة إلى محمود أمين العالم هو قراءته لكتاب لينين «المادية والمذهب النقدى التجريبى».. لقد قادنى هذا الكتاب إلى «جدل الطبيعة» لفريدريك انجلز.. ولقد كان هذا هو الحدث الذى قلب حياتى الفكرية رأساً على عقب».[1]

لقد كان اللقاء بالماركسية هو الذى يمثل بالنسبة إلى العالم ورفاقه الاختيار الذى يتيح تحقيق الترقى الفكرى والانحياز للفكر العلمى والالتزام بقضايا الواقع الاجتماعى.

ولقد كان لينين بإنجازاته السياسية والفكرية هو مفتاح الدخول إلى الفكر الماركسى.

وعلى رغم ان الفكر المصرى الحديث قد تعرف على كارل ماركس وأفكاره منذ نهاية القرن الماضى عبر كتابات المثقفين الاشتراكيين أمثال: سلامة موسى وفرح أنطون ونقولا حداد ومصطفى حسنين المنصورى، ورغم انه كانت هناك محاولات عديدة لتأسيس تنظيمات اشتراكيه، فإن الفكر اللينينى، كصيغة خاصة للماركسية، لم يتم التعريف عليه إلا فى الأربعينيات من القرن العشرين ،وقد تم تبنيه بصورة واسعة فى الأربعينيات من هذا القرن من

---

(١) المرجع السابق، ص ٦.

قبل الشباب الاشتراكى المنخرط فى الحركة الوطنية بل وصار الفكر اللينينى هو الصيغة الوحيدة المعروفة للماركسية فى مصر. . ولقد تضافرت عديد من العوامل لتسهم فى أن يحظى هذا الفكر بهذا القبول الواسع وبهذه الأهمية الاستثنائية له فى الفكر المصرى الحديث.

لقد كانت المقالات المنشورة فى الصحافة المصرية والتى تعالج موضوع الحركات الاجتماعية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر تشير غالبا إلى خصوصية روسيا عن باقى دول أوروبا، وتكمن هذه الخصوصية، من الناحية الاقتصادية فى سيادة نمط الانتاج الزراعى، ومن الناحية السياسية فى سيادة الاستبداد القيصرى، ولاشك فى أن التركيز على هذه الخصوصية كان يسعى إلى إقامة نوع من المحاكاة بين روسيا ومصر. بل هذه المحاكاة نفسها قد أشار إليها لينين نفسه وهو يقرأ أطروحة جوزيف نحاس والمقدمة لجامعة السربون بباريس بعنوان : «الوضع الاقتصادى والسياسى للفلاح المصرى». . ويعزى نحاس الخضوع السلبى للفلاح المصرى إلى الاستبداد السياسى الذى يتعرض له هذا الفلاح من قديم الزمان ويرى نحاس أن الفلاح يمكنه عبر نظام ديمقراطى أن يتحضر ويصير إيجابياً فى ممارسته السياسية، ويحدد نحاس مشكلة الشعب المصرى قائلاً : «إن طبقاتنا العاملة، سواء عمال المدينة أم عمال الريف، على درجة من الجهل تمنعها من تولى مهمة الدفاع عن حقوقها بنفسها. إن الميل للمعاناة دون الشكوى والمتأصل فيهم منذ قرون قد أضعف، إن لم يكن قد قضى نهائياً، على روح الاحتجاج التى نجدها لدى العامل الأوروبى»[1]. ولمواجهة هذا الوضع المتفاقم يطالب نحاس «بنشر نور التعليم بين هذه الطبقات» وأن يتدخل المشرعون ليحموا حقوق هؤلاء العمال فى مواجهة ارباب العمل ليقوموا بالدور نفسه الذى تقوم به النقابات فى البلاد الغربية.

ويعلق لينين فى هامش كتاب نحاس قائلاً: «وصف مختصر للبؤس اليائس للفلاحين الذين يعيشون فى أكواخ الطين، بلا تجهيزات، مع المواشى ويعملون صباحاً ومساء، جهالة وظلامية كما فى روسيا»[2] . . ويكتب لينين عن نوع الإصلاح الذى يقترحه نحاس بأنه:

(1) Joseph Nahas, Situoonting e'conomig et Soiole du Fellah e'gyptien, Paris, Arthur Rousseau, 1908, P. 92.

(2) Lenine, Oeuvres Completes, T. 39. Cahiers de l' impérialisme, p. 651.

«وجهة نظر مميزة لليبرالية الشعبية، بالضبط كما هو الحال فى روسيا بين ١٨٠٠ و١٩٠٠».[١]

وفى عام ١٩١٥ نشر مصطفى حسنين المنصورى كتابه «تاريخ المذاهب الاشتراكية» يؤكد على هذا التشابه بين ظروف البلدين ويرى أن روسيا، خلافاً لباقى الدول الأوروبية، فى حاجة إلى دولة مركزية قوية لأنها لم تعرف التمدن إلا منذ وقت قليل وأن الديمقراطية سوف تكون ضارة بها.[٢]

ولقد كان الحماس الذى عم الكثير من بلاد الشرق للثورة البلشفية فى ١٩١٧ أو ضدها يرجع فى جانب منه إلى هذا التشابه؛ والفكرة التى روج لها المثقفون الاشتراكيون فيما قبل والتى ترى أنه لا يمكن تحقيق الاشتراكية إلا بعد الوصول إلى درجة من النضج والنمو تتجلى فى الاقتصاد بالتصنيع وفى السياسة بالديمقراطية البرلمانية لم تعد فيما يبدو شرطاً ضرورياً للتقدم والعدالة.

إن السياق التاريخى يمهد الأرض فى مصر لتتبنى نفس المنهج الذى حقق نجاحاً فى روسيا.

وعلاوة على تشابه الظروف التاريخية بين البلدين كانت الصيغة النظرية للخبرة البلشفية ملامح تجعلها مقبولة وقادرة على الأداء فى مصر. ولقد بدأت بلورة هذه الصيغة الخاصة من الماركسية منذ بداية دخولها إلى روسيا. فلقد كان لدى المثقفين الروس ميول لتحويل الماركسية إلى نظرية شاملة لها آراؤها النافذة فى جميع المجالات. ولقد عبر ماركس نفسه عن ضيقه من هذه النزعة واتهم المثقفين الروس بتحويل أفكاره الى نظرية فلسفية تاريخية» تستخدم كحل جاهز كونى»[٣]

كما أدان انجلز «مذهبيتهم البلهاء» وهجومهم غير المتسامح على النارودينين (الاشتراكيين الشعبيين» والذين هم، فى رأى انجلز، الوحيدون الذى قاموا حتى الآن بإنجاز

---

(1) Ibid., p. 561.

(٢) انظر، مصطفى حسنين المنصورى، تاريخ المذاهب الاشتراكية، القاهرة، بدون دار نشر، ١٩١٥.

(3) Marx, Lenine à MikRailovski. 1877, ci Par K. Pape, ide'alog ie Froide Paris. j.j Pauvert 1967 P.27.

ما فى روسيا وينتقد طريقتهم فى الاستشـهاد بكتابات ماركس «وكأنها نصوص كلاسيكية أو من العهد الجديد».[1]

ولكن مع لينين لم يعد للماركسية الروسية شكلاً مميزاً ولكن أصبح لها محتوى خاص وأصبحت أعماله، من حيث الإمكانية، ذات جدوى كبيـرة للمثقفين الاشتراكيين فى مصر وترجع أهمية اللينينية بالنسبة إلى الاشتراكية المصرية إلى أنها تحتوى على الملامح الآتية:

أولاً: دور المثقفين

فى عام ١٩٠٢ كتب لينين فى كتابه «ما العمل؟» : إن العمال لم يكونوا قد استطاعوا بعد اكتساب الوعى الاشتراكى ـ الديمقراطى. وهذا الوعى لم يكن يمكن أن يأتيهم إلا من الخارج.. أما فـيما يتعلق بالمذهب الاشتراكى فـقد تولد عن النظريات الفلسفية والتـاريخية والاقتصـادية التى تبلورت بواسطة ممثلين متعلمـين من الطبقات المالكة، بواسطة المثـقفين. وكان ماركس وانجلز، مؤسسا الاشتراكية العلمية المعـاصرة ينتميان عبر وضعهم الاجتماعى إلى المثـقفـين البرجـوازيين. وبنفس الطريقـة فى روسيـا، لقد انبـثق المذهب الاشتـراكى الديمقراطى بشكل مستقل تماماً عن الطبقة العاملة، بل كان النـتيجة الطبيعية والحتمية لتطور الفكر لدى المثقفين الثوريين الاشتراكيين.[2]

هذا التقدير لدور الانتلجنسيـا كان موضع احتفاء من قبل المثقفـين الاشتراكيين فى بلد تكون الطبقة العاملة فيه ضعيفة بسبب الدور الثانوى الذى تلعب الصناعة فى اقتصاد البلاد، هذه الطبـقة، فى رأى ليـنين، لاتصل إلى الوعى الثـورى وحدها ولكن بفـضل المثـقفـين الثوريين. هكذا فالمثقفون الاشتراكيون المصريون الذين كانوا يكتفون بإيقاظ الضمائر وطلب الرأفة بالفقراء قد وجدوا أنفسهم قادرين على لعب دور أكثر ثورية.

ثانياً: ثورة الشيوعيين البرجوازية

فى كتاب «خطتـا الاشتراكية ـ الديمـقراطية فى الثورة الديمقـراطية» يطلب لينين من الطبقـة العاملة، عـبر الحـزب الاشتراكـى ـ الديمقراطى التـدخل فى الصراع القـائم بين

(1) Engels, Lettre a' Sorge (5 Dec'embre 1887). AZass oulitch (23 avril 1885). vou , Leid P.28.

(2) lenine, Que Fainre, Paris, e'd. Sociale, 1971. P.197.

البرجوازية والملكية المطلقة، فعلى العمال أن يمنعوا تردد البرجوازية وأن يدفعونها إلى اتخاذ مواقف راديكالية فى مـواجهة الاقطاع والسلطة القيصرية: «إن الثورة الـديمقراطية هى ثورة برجـوازية.. ولكننا نحن الماركـسيين علينا أن نعـرف أنه لايوجد ولـن يوجد بالنـسبـة للبروليـتاريا والفلاحين أى طريق إلى الحـرية الحقيقيـة إلا طريق الحرية البرجوازيـة والتقدم البرجوازى.. ونحن بصفـتنا ممثلين للطبقة الطليعية.. علينا أن نـطرح أمام الشعب بأكمله مشاكل الثورة الديمقراطية بروح المثابرة والمبادرة».[1]

وهكذا يمكن للماركـسيين أن يستـثمروا كل طاقـتهم فى ثورة وطنية ديمقـراطية ذات طبـيعة برجـوازية، ولم تكن تجـربة الحركـة الشيـوعيـة المصرية وعـلاقتهـا بحزب الـوفد والتشكيلات السـياسية الأخرى وعـلاقتها فيـما بعد بجمـال عبدالناصر إلا توضيـحا لهذا الاختيـار: فكل التنظيم والدعاية والتحـريض تتم لدفع البرجوازية لأخذ مـواقف جذرية فى مواجـهة الإمبرياليـة، بل وحتى على مستـوى النظرية لم تتجاوز ثورتهم يومـاً إطار الثورة البرجوازية.

ثالثا: تحليل ظاهرة الإمبريالية

لقد انتقد لينين والبلاشفة ـ موقف الأممية الثانية تجاه مسألة الاستعمار، وأيدوا الشعوب المستعمرة فى كفاحها من أجل الاستـقلال، وعلى المستوى النظرى «كان المؤرخون البلاشفة والذين لايعرفون الراسمـالية الا فى صيغتها الاسـتعمارية، ذوى مهارة خاصـة فى اكتشاف دور الرأسمال الاستعمارى فى العالم، وأنجزوا فى ذلك دراسات عميقة.[2]

وفى كتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» يصل لينين إلى الخلاصة الآتية:

«إن الإمبريالية التى تعنى اقـتسام العالم.. وتجنى فوائد احتكارية عـالية لصالح حفنة من البلاد الغنية، تخلق الإمكانية الاقتصادية لـرشوة الشرائح العليا من البروليتاريا، وبذلك تشـجع على الانتهـازية وتدعمـها، ولكن مـالايجب أن ينسى هو القـوى المتفـضة ضـد

(1) Lenine. Deux Toct ig ues de la sociale - democratie dane la re'volutian de'morat igue, e'd. Sociole, 1961. P.152.

(2) Antun Pannekoek,teninePhilosphe,paris,Spastacus,1970, P. 103.

الإمبريالية بشكل عام وضد الانتهازية بشكل خاص».[1]

هكذا تجد البلاد المتخلفة نفسها فى قلب الكفاح ضد الإمبريالية عبر حركتها الوطنية.

ويفسر اليسارى الهولندى أنطون بانكوك تأثير النظرية اللينينية فى الإمبريالية على البلاد المتخلفة قائلاً: «فى البلاد الخاضعة للاستغلال الاستعمارى تكون هناك مصلحة مشتركة لجميع الطبقات فى التحرر من الرأسمال الربوى الأجنبى من أجل وضع قواعد النمو الاقتصادى الحر الذى يؤدى عامة إلى تكوين الرأسمال الوطنى. وهذا الكفاح يستهدف الرأسمال العالمى، ولهذا فإنه عادة يتم تحت اسم الاشتراكية، وبما أن العمال فى البلاد الغربية لهم نفس العدد، يكونون بالتالى حلفاء طبيعيين لهذا الكفاح فى المستعمرات:[2]

وفى مصر كان كتاب «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» هو الكتاب الوحيد للينين الذى لاقى ا ستقبالاً حماسياً خارج دوائر الماركسيين.

هذه هى بعض الملامح التى جعلت للفكر اللينين أهمية بالنسبة لمصر، وعلى الرغم من ذلك فقد تأخر التعرف على هذا الفكر حوالى عشرين عاماً، ويعود هذا التأخير إلى ظروف مصر الخاصة: حظر الحزب الشيوعى المصرى الذى كان مرتبطاً بالأممية الثالثة فى عام ١٩٢٦، فى الوقت الذى كانت القومية الليبرالية فى أوج نجاحها حيث جسدت فى هذا الوقت الآمال الشعبية واستقطبت جهود الشباب.

ومنذ عام ١٩١٧ كانت الصحافة المصرية لا تكف عن الحديث عن البلشفية، ولكنها كانت تطلق هذا المصطلح على التطرف وعلى النزوع الثورى دون أن تقوم جدياً بتنمية الوعى بالأسس الأيدلوجية للبلشفية، ولم تصبح اللينينية معروفة ومتبناه إلا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ويفسر هذا التبنى أسباب عديدة منها:

١ ـ أظهرت القومية الليبرالية عجزها عن تحقيق طموحات الشعب والوصول لحل جذرى لمسألة التحرر الوطنى؛

٢ ـ لم تؤدى كتابات المفكرين الاشتراكيين الذى كانوا يسعون للتوفيق بين التراث والليبرالية والاشتراكية إلى إحداث أى إصلاح؛

---

(1) lenine, L' impe'rialisme stade Suprem du capitalisme, Paris, e'd. sosiale, 1950 P.260.
(2) A. Pannekoek, op. cit., 102.

٣ ـ الانتشار الكبير للليننية فى الاحزاب الشيوعية فى البلاد الغربية؛

٤ ـ السياق الدولى والذى أعطى للكفاح ضد الفاشية أهمية ملحة وكانت المادية اللينينية فى هذا السياق تستخدم كقاعدة أيديولوجية لحركة غير معادية للرأسمالية ولكنها فقط معادية للرجعية والفاشية والتى أطلق عليها هذا الوقت اسم «الجبهة الشعبية» أو «الجبهة الوطنية».

٥ ـ الانتصار السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية، والذى اثار حماساً كبيراً فى مصر، فالمشاعر المعادية للإنجليز والمعادية للاستعمار والتى دفعت قطاعات واسعة من البرجوازية الصغيرة أو الجماهير المعدومة إلى انتظار التحرر على يد القوات الألمانية قد تحولت إلى الإعجاب بستالين والاتحاد السوفيتى.

وكان هذا الإعجاب محبذاً على تطور الشيوعية وخصوصاً فى قطاعات الشباب إلى درجة يمكن معها القول بأنه «قبل معركة ستالينجراد كان ينظر إلى الشيوعيين المعدودين فى مصر على أنهم أعضاء فى طائفة غريبة أو ومحرومين من أى مستقبل، وبعد ستالينجراد حظوا بتدعيم نابع من الاحترام الكبير للجيش الأحمر وصاروا يشكلون طليعة مصرية لحركة شيوعية لايمكن مقاومة اندفاعها[1] وقد أشار العديد من الشيوعيين المصريين إلى هذه الصلة بين انتصار ستالينجراد وتطور الحركة الشيوعية المصرية فيذكر جانى لاكوتور مقدمة إحدى النشرات السرية تقول «كما أدى انتصار أكتوبر إلى خلق الشيوعية الصينية وأدت مدافع ستالينجراد إلى انبثاق الشيوعية فى مصر».[2]

هكذا فى النهاية نجد أن اللينينية بفضل سماتها الخاصة وبفضل السياق التاريخى الذى شجع عليها كانت تمثل بالنسبة للانتلجنسيا المصرية الشابة ذلك الشكل من الماركسية الأنسب لظروف مصر. ولكن منذ موت لينين وحتى نهاية الأربعينيات تعرضت اللينينية الى تطور كبير تم صياغته تحت رعاية ستالين، وهذا اللينينية المصاغة بإشراف ستالين هى التى نقصدها عندما نشير إلى الإطار النظرى للحركة الشيوعية المصرية : وهى لينينية قائمة على كتاب ستالين «أسس اللينينية» وبعض الكتب التبسيطية الأخرى التى كتبها ستالين والتى

(1) Gilles Perrault, un homme a' Part, T.1, Paris, Barrault, 1984. P.159.

(2) Jean et Simon lacouture, L' Egypte En mouvement, Paris, Seuil' 1956, P. 159.

تشكل المادية الجدلية قاعدتها الفلسفية: «لم تعد اللينينية سوى أنشودة تمجيد للدولة السوفيتية وملحمة تشيد ببطولة ستالين.. لقد أصبحت عقيدة جامدة لايستطيع أن يمسها إلا القائد الكبير».[1]

وكانت هذه الأيديولوجية عقبة فى وجه التعرف على أفكار ماركس وعلى أفكار المدارس الماركسية الأخرى وذلك لأسباب بديهية فهى صيغة كما يقول جورج لابيكا «قد أغلق فيها باب الاجتهاد، ولم يبق فيها من عمل سوى الشروحات التى لانتهى وعديد من كتب التبسيط التى لاتحصى فى جميع اللغات، اختلافات محدودة هنا أو هناك، لكنها لاتقترب مما هو جوهرى وهو جسم النظرية»[2]، وهكذا تأسس فى مصر نوع من التماهى بين فكر ماركس والرؤية الستالينية (الماركسية اللينينية) وذلك لدى الشيوعيين ولدى خصومهم أيضا.

وعلى رغم هذا الإطار النظرى الضيق لعب الماركسيون المصريون دوراً بارزاً فى تنشيط الفكر المصرى الحديث وقدموا إسهامات هامة فى مجالات عديدة كالاقتصاد والأدب والفلسفة والتاريخ.

وإذا لم يمكن تفسير هذا الإسهام فى إطار التصوير الستالينى النظرى الضيق فإنه يمكن أن نجد تفسيراً له فى انتماء الماركسيين المصريين إلى التيار الرئيسى فى فكر النهضة العربية وهو تيار التحديث والحركة الوطنية، بل ويمكن القول بأن الحركة الوطنية قد اكتسبت معهم أبعاداً جديدة وأصبحت أكثر جذرية.

ففى عام ١٩٢٢ أصبحت مصر بلداً مستقلاً.. ولكن تواجد القوى العسكرية الإنجليزية والتدخل الدائم فى شئونها السياسية قد دفعا الجماهير إلى الوعى بشكلية هذا الاستقلال.

كما أظهرت السنوات التالية، وحتى الحرب العالمية الثانية حدود الأحزاب السياسية فى تحقيقها للطموحات الشعبية والحكومات النابعة من هذه الأحزاب، على اختلاف انتماءاتها الطبقية وبرامجها وحظها من الشعبية قد دخلت فى مفاوضات عقيمة مع الإنجليز لتخفيف تواجدهم العسكرى وقد احتفظ هذا الوضع بالعاطفة الوطنية فى حالة تأجج.

---

(1) Alfred G. Meyer, lénine et le leniniame. Paris,Payot, 1966, P.249.

(2) Georges labica, le Marxisme len in isme, Paris Bruno Hwsman 184, p, 18. Jacques Berque, L' Egypt, in pe'rialisme.

لقد صار للقضية الوطنية الأولوية على كل القضايا وقد كان بورة منظور جديد لحل المشكلة الوطنية هو المبرر الوحيد لتشكيل أحزاب جديدة أو لإحداث انقسامات فى الأحزاب القديمة ولكن كل المحاولات فى فترة ما بين الحربين تصل دائما إلى طريق مسدود «لقد غزا التشاؤم بالفعل كل قطاعات الحياة فى مصر، ولم يكن يوجد سوى تبادل بين أشكال من الحماس والبلاغة الخطابية ولكن المراقب الذى يستطيع ان يخترق هذه الواجهة يعى بأن المجموعات الواعية والمكافحة يعتريها التشاوم وفقدان الثقة فى الذات تشاؤم زوده تاريخ الجيل الأخير بكل أسباب الوجود. كانت الماركسية فقط هى التى تسمح بالإفلات من الاختيار بين الوهم أو اليأس.[1]

فى هذا المناخ، كان على الجيل الجديد من المثقفين المصريين أن يبحث عن بديل فى مواجهة الشعور بالعجز والتشاؤم السائدين وكان الفكر الماركسى يمارس سحراً على الجيل الجديد الذى يتمنى تغييراً فعالاً مع رفض أعتدال المثقفين الوطنيين التقليديين.

ويصف ماكسيم رودنسون جاذبية الماركسية فى هذا الإطار قائلاً: «قبل كل شئ، كانت الماركسية تمد العالم الثالث بمنظور أيديولوجى متفائل وإرادى وثورى. لم يكن هناك شىء مستحيل.. كانت خاصيتها العلمية تكفل صلابة المذهب وفاعلية الحلول، وكانت التعبئة من أجل الثورة تمدهم بمبررات للحياة لقد صرنا بعيدين عن الصبر الذى يوصى به خبراء العالم الرأسمالى، وعن سلبيتهم وتواطئهم تجاه الرموز العفنة للقهر والاستغلال.[2]

وعلاوة على ذلك كانت الماركسية تمثل حلاً للمشاكل التى طرحت على الانتلجنسيا فى كفاحها النظرى من أجل الاستقلال والتقدم «فالماركسية تقدم أيديولوجية قادرة على رفض التراث دون الارتماء فى أحضان أوروبا، ورفض شكل معين للمجتمع الأوروبى دون الاضطرار للعودة إلى التراث ولم يعد الفرد الذى يتبناها مدعواً لأن يختار مثل المثقف الليبرالى بين الحقيقة الذات والاعتقاد الشعبى فقد أصبح لديه إمكانية أن يوائم بين الاثنين عبر الممارسة العملية.[3]

---

(1) Jacques Berque, l'Egypte, in in péréalisme et revolution, Paris Gallimard 1967, p. 677.

(2) Maxime et revolution, Paris Gallimard, 1967, P. 677.

Rodinson, Maruxisme et Monde musulmen,Paris seuil, 1972, P. 315.

(3) Abdalla laroui, la crise des in tellectuels arabes paris mapero, 1974. P. 151.

وهكذا كانت مصر تستعد، فيما يرى أنور عبدالملك مع الماركسيين المصريين لأن تدخل فى مرحلتها الثانية فى الحركة الوطنية «فى أثناء المرحلة الأولى والتى تمتد من بدايات القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية، كانت المشكلة الرئيسة هى ضمان انبثاق المجموعات والطبقات الاجتماعية المحلية والتى كانت تمر بصيغ مختلفة من الإقطاع الشرقى الى رأسمالية متخلفة من النمط الاستعمارى ذات سمة زراعية غالبة. . ولكن بدأ التابعون المحليون للمحتل فى نظر الغالبية الكادحة مهمومين أساساً بالحفاظ على امتيازاتهم واستمرار سلطتهم»[1] أما المرحلة الثانية والتى انخرط فيها الماركسيون المصريين فقد كانت تسعى إلى تحقيق التحرر الوطنى من خلال منهج جديد، وقوى اجتماعية جديدة، وأيديولوجية جديدة.

وهدف هذه المرحلة الجديدة هو «ضمان الاستقلال الحقيقى عبر تأسيس دولة قومية مستقلة وفى داخل هذه الدولة يتم ضمان حق الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة فى الوصول إلى الموارد المالية والثقافية للأمة مع حقهم فى ممارسة سلطة الدولة.[2]

هذه هى ملامح المشروع الوطنى كما تصورته الانتليجنسيا المصرية الشابة، ولم يكن هذا المشروع اختياراً فكرياً محضاً بل كان التطور التاريخى لمصر والعالم يمده بأسباب عديدة للوجود والفاعلية.

من هنا تتضح نقطة الانعطاف الكبرى فى حياة محمود أمين العالم، وكيف أنه وهو شاب دارس للفلسفة معتنقا لأفكار مثالية تكون قراءة كتاب لينين بالنسبة إليه شرارة أو كالدفعة التى توجهه وجهة جديدة ولايفسر ماحدث سوى ذلك الاهتمام الكبير بقضايا الوطن. ولايملك أحد أن يجزم بأن الاهتمام بقضية الوطن كان حكراً على محمود أمين العالم ورفاقه فقد كانت هناك تيارات أخرى بعيدة تماما عن الماركسية وعن اللينينية وتنشغل أيما انشغال بقضية الوطن. . ولكن ما يميز محمود أمين ورفاقه فى ارتباطهم بالقضية الوطنية انطلاقاً من الماركسية اللينينية محورين رئيسيين:

---

(1) Anouar Abdel- Malek, Anthologi dee le liherature arale Contemp araine, vel, 2, les ea ais, Paris, Selil, 1965, P.80.

(2) Ibid . P.9

المحور الأول: مواصلة مشروع التحديث ونشر الثقافة العقلانية.

المحور الثانى: ربط القضية الوطنية بآفاق إنسانية وبالتطورات المحيطة فى العالم الخارجى.

وكما كان لهذا الفكر اللينينى فاعليته التاريخية فإن له أيضا حدود تتضح يوماً بعد يوم بفعل التطور التاريخى. ولهذا يبقى مطروحاً على محمود أمين العالم وجيله وعلى الأجيال التى تليه مهمة تجاوز هذا الفكر مع الاحتفاظ بالغاية الأساسية التى كانت وراء إنتاجهم الفكرى وهى العمل على تحرير الإنسان المصرى من أنواع الاستغلال والاغتراب كافة، فى إطار إنسانى عام.